العملُ معًا للحَيلولةِ دون توظيفِ الدِّينِ في النِّزاعاتِ

هل توظيفُ الدِّين يُساهِم في استقرارِ الأُمَمِ؟

وائل عربيات(*)

أيُّها الإخوةُ الأكارِمُ.. أيَّتها الأخواتُ الفُضلياتُ:

السَّلامُ عليكم

بدايةً ونحن نتحدَّثُ معًا عن موضوعِ منعِ توظيفِ الدِّينِ في النِّزاعاتِ السياسيَّةِ.. اسمحوا لي بدايةً أن أخالِفَ في العُنوانِ ذاتِه، فالعُنوانُ ربَّما كان منحازًا إلى رأيٍ معينٍ، مع أنَّ الأصلَ في العُنوانِ أن يكونَ عامًّا شاملًا يتركُ المجالَ للمتحدِّثِ أن يُبدِيَ رأيَه، والسُّؤالُ الذي يُطرحُ: هل الدِّينُ وتوظيفُ الدِّينِ يساهِمُ في النِّزاعاتِ؟ أم أنَّ الدِّين عاملُ استقرارٍ للأُممِ والشُّعوبِ إذا أُحسِنَ التعاملُ معه؟ فهل الدِّينُ في ذاتِه إذا وُظِّفَ يساهِمُ في النَّزاعاتِ أم أنَّ عدمَ استخدامِنا للدِّينِ بالشَّكلِ الأمثلِ والتَّوظيفِ السياسيِّ للدِّينِ وتغليفِ المصالحِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ بغلافِ الدِّينِ هو الذي يساهِمُ في النِّزاعِ؟

ولذلك أوَّلُ نقطةٍ لا بُدَّ أنْ نؤكِّدَ عليها أنَّ الدِّينَ عامِلُ استقرارٍ في الأرضِ وعامِلُ وَحدةٍ، وأنَّ هناك مَن أرادَ أنْ يُغَلِّفَ مصالحَه السِّياسيَّةَ والاقتصاديَّةَ بغلافِ الدِّينِ؛ مِن أجلِ أن يزرعَ الكراهيةَ والنِّزاعَ بينَ الشُّعوبِ، في حين أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد خَلَقَنا متساوِينَ في الحُقوقِ والواجِباتِ، وأنزَلَ علينا العَدلَ في الأرضِ ليقومَ

النَّاسُ بالقِسطِ، فالدِّينُ مِن أهمِّ الخصائصِ الَّتي يمكنُ أن نتحاورَ بها، وهذا يقودُنا إلىٰ قضيَّةٍ ثالثةٍ سأطرحُها.

هناك ثلاثُ قضايا يحتاجُ إليها العالَمُ، عالَمُنا اليوم يحتاجُ إلىٰ الرَّخاءِ الماديِّ، والرفاهِ الروحيِّ، والأمنِ البيولوجيِّ.

رفاهٌ ورخاءٌ وبقاءٌ:

العالَمُ العربيُّ والإسلاميُّ نجحَ نجاحًا باهرًا في تحقيقِ جزءٍ من هذه، والغربُ نجحَ نجاحًا باهرًا في تحقيقِ جزءٍ منها، وأقولُ اليوم بأنَّ الحوارَ لا يعني أن نجلسَ علىٰ طاولةٍ واحدةٍ ونتحاورَ، هذا أبسطُ أنواعِ الحوارِ، هذا إن بقينا عليهِ هو ذرٌّ للرَّمادِ في العيونِ، هذا عبارةٌ عن شكلياتٍ ومظاهرَ أنَّنا نتحاورُ، الحوارُ الحقيقيُّ كيف يمكنُنا أن نتبادلَ المنتوجاتِ الحضاريَّةَ فإذا أنتجَ العالَمُ العربيُّ منتوجًا حضاريًّا فلا بدَّ أن يقابلَه في العالَمِ الغربيِّ منتوجٌ حضاريٌّ آخرُ، أُعطِيكَ وتُعطيني.

وأقولُ الآن.. إذا كنَّا نتحدَّثُ عن ثلاثِ قضايا يحتاجُها العالَمُ، هي الرَّخاءُ المادِّيُّ بمعنَىٰ الغِنَىٰ، فالغربُ قد نجحَ نجاحًا باهرًا في تحقيقِه، ولكنَّه فشلَ في تحقيقِ الرفاهِ الرُّوحيِّ، وهي القيمُ الروحيَّةُ الخالدةُ، ولذلك هو يحتاجُ إلىٰ حضارةٍ أُخرَىٰ يتحاورُ معها، والعالَمُ العربيُّ والإسلاميُّ نجحَ نجاحًا كبيرًا في تحقيقِ الرفاهِ الروحيِّ، وهي السعادةُ مقابلُ التعاسةِ، ولذلك فإنَّ الغربَ يحتاجُ إلىٰ الحوارِ مع العالَمِ العربيِّ والإسلاميِّ، والعالَمُ العربيُّ والإسلاميُّ قد فشلَ في الوقتِ الحاضرِ فَشلًا ذَريعًا في تحقيقِ الرَّخاءِ الماديِّ بمختلفِ أبعادِه، ولذلك هو يحتاجُ إلىٰ حضارةٍ

أُخرَىٰ للتَّحاورِ معَها وهي الحضارةُ الغربيَّةُ، وبذلك نسيرُ جنبًا إلىٰ جنبٍ في تحقيقِ الأمنِ البيولوجيِّ وهو البقاءُ ضِدَّ الفَناءِ، فأيُّ حضارةٍ علىٰ وجهِ الأرضِ لا تحتاجُ إلىٰ البقاءِ؟! كلُّنا نحتاجُ إلىٰ البقاءِ ضِدَّ الفَناءِ، نحتاجُ إلىٰ الأمنِ البيولوجيِّ، ولذلك فنحنُ نحتاجُ إلىٰ الحضاراتِ معًا لتتعاونَ.

القضيَّةُ الأُخرَىٰ في غايةِ الأهميَّةِ، وأتَّفِقُ مع بعضِ المفكرينَ بأنَّ النصَّ القرآنيَّ في الكتابِ والسُّنَّةِ كان أرحمَ مِنَ الفِقهِ والتاريخِ، ربَّما الفقهُ في بعضِ مراحلِه تأثَّرَ بمشروعٍ سياسيٍّ، كتبٌ فقهيَّةٌ كُتِبَت في ظِلِّ ظروفٍ معيَّنةٍ، في ظلِّ حروبِ الفِرنجةِ، وأيضًا لاحظنا بأن حروبَ الفِرنجةِ الَّتي أطلقَ عليها بأنَّها الحروبُ الصليبيَّةُ، وأنا أتَّفِقُ مع التَّسميةِ بأنَّها حروبٌ فرنجيَّةٌ وليست صليبيَّةً، وأنَّ صلاحَ الدِّينِ كان أهمُّ قادتِه مِنَ المسيحيِّين، دافعوا جَنبًا إلىٰ جنبٍ عن حمايةِ المسجدِ الأقصىٰ المباركِ، هذا التاريخُ الذي يُبنَىٰ عليه وليسَ تاريخَ القتلِ والتَّشريدِ. هذه هي الأبجدياتُ الَّتي يُبنىٰ عليها، العهدةُ العمريَّةُ الَّتي أقامها عمرُ بنُ الخطابِ، والَّتي أكدت علىٰ أنَّها عامَّةٌ تزيدُ ولا تنقصُ، وكذلك استقبالُ رسولِ اللهِ (صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لنصارَىٰ نجرانَ في المسجدِ، وفتحُه المجالَ لهم للصَّلاةِ في المسجدِ، هذا يُؤسَّسُ عليه ويُبنَىٰ عليه.. كلُّ هذه مواقفُ قامَ بها التاريخُ الإسلاميُّ وأقولُ والمسيحيُّ معًا، لا بدَّ أن يؤسَّسَ عليها ولا نريدُ أن يُختطفَ هذا الخِطابُ.

الحروبُ الَّتي مرَّت -حروبُ الفِرنجةِ- سُمِّيت بأنَّها الحروبُ الصليبيَّةُ من أجلِ حشدِ الرأيِ العامِّ في أوروبا، وألقت أوروبا بفَلذاتِ أكبادِها ليقاتِلوا في الشَّرقِ،

وكانت تغلِّفُ في داخلِها مطامعَ سياسيَّةً واقتصاديَّةً وليست دينيَّةً. هذا هو استغلالُ الدِّينِ في النِّزاعاتِ السِّياسيَّةِ.

أقولُ في هذا المقامِ، بأنَّ فكرَنا السياسيَّ الإسلاميَّ يتَّسعُ لأن نعيشَ معًا ونَبنِيَ معًا، وأن نُقيمَ حضارةً معًا، هل نحنُ جاهزون لذلك؟ هل سنبقَىٰ نتحدَّثُ من بروجٍ عاجيَّةٍ؟! إذًا وثيقةُ المدينةِ المنوَّرةِ الَّتي أقامَها النبيُّ صلىٰ الله عليه وسلم بحرفِها ونصِّها: «المسلمونَ ومَن تَبِعَهم ولحِقَ بهم وجاهدَ معَهم أُمَّةٌ مِن دُونِ النَّاسِ» ونصٌّ آخرُ: «يهودُ بني عوفٍ أمةٌ مع المؤمنين» وفي روايةٍ أخرىٰ: «أمةٌ من المؤمنين» إنَّ علىٰ المسلمين نفقتهم وعلىٰ اليهودِ نفقتهم وإن بينهم التناصرَ علىٰ من خالفَ هذه الوثيقةَ».. فهي دولةٌ مدنيَّةٌ ذاتُ مرجعيَّةٍ إسلاميَّةٍ؛ لأنَّ الدُّولَ نوعانِ: دولةٌ شكليَّةٌ، ودولةٌ موضوعيَّةٌ، الدولةُ الشكليَّةُ أعلىٰ ما فيها الدستورُ، يليه القانونُ، ثم التعليماتُ واللَّوائحُ، أمَّا الدَّولةُ الموضوعيَّةُ فهي الدستورُ والقانونُ والأنظمةُ واللوائحُ، لكن يعلوها هيمنةُ القيمِ العليا كالعدلِ والشُّورَىٰ وحقوقِ الإنسانِ والاحترامِ وحمايةِ حقوقِ الأقَلِّيَّاتِ. هذه دولةٌ موضوعيَّةٌ لم تقتصرْ علىٰ الشَّكلِ فقط، بل يسودُها الدستورُ الذي تُستَمَدُّ وتُستلهَمُ مبادؤه وقيمُه من هيمنةِ القيمِ العليا، ولم يوجدْ في مفهومِ المدينةِ المنورةِ كلمةُ الأقلياتِ، بل هي المواطنةُ.

ويجبُ علينا أن نخرجَ من هذا المؤتمرِ بتوصيةٍ واضحةٍ أنَّنا لا نتعاملُ مع المسيحيِّين أو غيرِهم في بلادِ العربِ والمسلمين علىٰ مفهومِ الأقليَّةِ، بل علىٰ مفهومِ المواطنةِ الكاملةِ غيرِ المنقوصةِ؛ لأنَّ هذا المفهومَ يَستمِدُّ ويَستلِهمُ قِيمَه مِن مبادئِ الإسلامِ

والشَّرقِ، لن نسمحَ لأيٍّ كانَ أن يختطِفَ هذا الخطابَ الإسلاميَّ، يجِبُ علينا أن نضعَ أيديَنا بأيدِي بعضِنا -مسلمِينَ ومسيحيِّين، سُنَّةً وشِيعةً، دُرزًا وعَربًا وأكرادًا وجميعَنا والإنسانيَّةَ جمعاءَ- لمنعِ اختطافِ الخطابِ الإسلاميِّ.

إنَّنا اليومَ نعيشُ حالةً مِنَ الحربِ، ومعركةً حقيقيَّةً بينَ إسلامٍ حقيقيٍّ يدعو إلىٰ العَدلِ والتَّسامُحِ والمحبَّةِ واحترامِ حقوقِ الإنسانِ وحمايةِ المرأةِ، وأنَّه لا ظلمَ في أرضِها، وبينَ إسلامٍ مُختطَفٍ يدعو إلىٰ القتلِ والذَّبحِ والتَّشريدِ، هؤلاءِ هم أعداءُ الإنسانيَّةِ هم أعداءُ أنفسِهم والبشريَّةِ، وعلينا أن نقاوِمَهم فكريًّا وعقائديًّا واجتماعيًّا؛ لنكونَ خيرَ أُمَّةٍ أخرجت للنَّاسِ، نَعَم إنَّ الدولةَ المدنيَّةَ هي القائمةُ وليست الدولةَ الدِّينيَّةَ.

وأختمُ بموقفٍ حصلَ مع إدوارد الثالث، وهو ملكُ إنجلترا الذي حكمَ باسمِ الربِّ في ذلك الوقتِ، وثارَ عليه الشعبُ، وقُدِّمَ للمحاكمةِ والمقصلةِ، وهو يرفضُ الإجابةَ ويقولُ: أنا أحكمُ باسمِ الربِّ فليس لكم أن تسألوني، ثم حُكِمَ عليه بالإعدامِ وهو يرفضُ الإجابةَ! ثم قُدِّمَ إلىٰ المقصلةِ وودَّعَ بناتِه وحفيدَه وخلعَ شارتَه وألبسَه إيَّاها، وقال له: أبوك جبانٌ التحق بالفرنسيين، أنت ستحكمُ من بعدي، ثم قُطعت رقبتُه وهو يرفضُ الإجابةَ، هذا هو الحكمُ الثيوقراطيُّ الدِّينيُّ الذي يقابِلُ الدَّولةَ المدنيَّةَ ذاتَ المرجعياتِ الَّتي تقومُ علىٰ العدلِ والشُّورَىٰ واحترامِ حقوقِ الإنسانِ.

لذلك يجبُ أن نخرجَ اليومَ مِن مؤتمرِنا هذا وغيرِه بتوصياتٍ إلى الشبابِ، وأن ننزلَ إلى الواقعِ وشعوبِ الأرضِ، ونعلنُها كلمةً واضحةً مدويةً أنَّنا جميعًا مع الإنسانيَّةِ، نحنُ دينُ الإنسانيَّةِ وديانتُها؛ لأنَّ ربَّنا واحدٌ، وديانتِنا خرجت من مشكاةٍ واحدةٍ، فكلُّنا منتمون لبعضِنا البعضِ.

والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه

***